

مناهج تفريية

مبادئ أساسية فكرية وعملية
في التقريب بين المذاهب

الاستاذ الدكتور يوسف القرضاوى*

أدب الصلوة الاسلامية يتجه أبدا الى التقريب . لأنه ينظر الى الاسلام نظرة شمولية لاناقلصة .. نظرة إنسان يحمل هموم الاسلام .. لاهموم الارترافق باسم الاسلام . ولقد رأينا واد الصلوة المعاصرين يتحدثون عن التقريب بين المذاهب الاسلامية بلغة واحدة، لتكاد تفرق في هذا المجال بين لغة حسن البنا وسيد قطب والامام الخميني والامام الخامسي والامام الصدر ومحمد الغزالي ...

ينطلق القرضاوى في ورقته هذه من تجاربه الشرة في الدعوة، ومن روجه المتوجهة المتوقدة المتطلعة الى عزة المسلمين، كما ينطلق أيضا من سلفية واعية مفتوحة قائمة على أساس فهم معق - لاسطحي - للقرآن والسنة . تقدم القسم الاول من هذا البحث الى القراء ويضم ثلاثة من المبادئ الأساسية الفكرية والعملية في التقريب بين المذاهب الاسلامية، وسيطالع القارئ في العدد القادم - بإذن الله - بقية هذه الاسس.

١- ورقة قدمت الى الندوة الثانية للتقريب بين المذاهب الاسلامية . الرباط ١٢ - ١٤ ربيع الثاني

١٤١٧هـ.

* - باحث وداعية اسلامي كبير، واستاذ الدراسات الاسلامية في جامعة قطر.

☆ اذا مت عطشانا فلانزل القطر وشاوس مرگ من، جدر ياجه سراب! ☆

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذه الورقة تتحدث عن مبادئ أساسية للتقريب بين أبناء هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وبوأها مكانة الأستاذية للبشرية، حين قال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^١.

وقد وحد الله هذه الأمة بحكم العقيدة الواحدة، والقبلة الواحدة، والوجهة الواحدة، فهي أمة ذات هدف واحد، ولهذا حذرنا ربها أن تهجر صراط ربها، إلى مناهج البشر، فتتفرق بها السبل يميناً وشمالاً، ويضيع منها الطريق، بل قد يضيع منها الهدف ذاته. يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكَمِ صِرَاطُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٢.

ولقد رأينا أعداء الأمة قديماً وحديثاً، يكيدون لها كيداً، حتى يفرقوا شملها الملتئم، ويمزقوا وحدتها الجامعة، فتضعفها الفرق، فيسهل عليهم الغلبة والهيمنة عليها، والتحكم في مصائرنا.

ولقد لاحظنا هذه السياسة في عصرنا واضحة كالشمس في رابعة النهار، فقد كان شعار الاستعمار من قديم: «فرق تسد»، ولا يزال ورثة الاستعمار القديم، وكل القوى المعادية للإسلام في المشرق والمغرب، يجهدون جهدهم للتفريق بين أبناء القبلة الواحدة بشتى الطرق، ومنها: إحياء الخلافات القديمة، وخلق خلافات جديدة. ومن ذلك: صب النار على الخلافات المذهبية، وقذف الوقود لها حتى تظل متأججة، ولا سيما بين السنة والشيعة، فإن لم يوجد في بلد هذا الخلاف، أوجد خلاف آخر، أو استغل خلاف قائم، كالخلاف بين السلفية والصوفية، والخلاف بين المذهبيين واللامذهبيين، والخلاف بين المجددين والمقلدين... الخ.

والواجب على الدعاة المخلصين والمفكرين الصادقين أن يتنبهوا إلى هذه المكاييد، ويسدوا الطرق إليها، ويعملوا على لم شمل الأمة وجمع صفوفها، وتوجيه أسلحتها إلى أعدائها، لا إلى صدور بعضها لبعض، ويشدوا أزر الأخوة الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فحرام أي حرام أن يتكلم أهل الباطل، ويتفرق أهل الحق، وأن يوالي الذين كفروا بعضهم بعضاً، ويعادي الذي آمنوا بعضهم بعضاً، وهو ما حذر منه القرآن حين قال: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾^١.

لهذا رحبت بالمشاركة في «ندوة التقريب بين المذاهب» وقدمت هذه الورقة لإرساء مبادئ أساسية: فكرية وعملية للتقريب المنشود، وأرجو أن ينفع الله بها، وأن يجمع كلمة أمتنا على الهدى وقلوبها على التقى، وأنفسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، إنه سميع مجيب.

مبادئ أساسية للتقريب بين المذاهب

١- وحدة الأمة فريضة وضرورة

أول المبادئ التي يجب أن نقررها هنا: وحدة هذه الأمة، فهي أمة واحدة: ربها واحد، وكتابها واحد، ونبينا واحد، وقبلتها واحدة، وسعائرها واحدة، وشريعتها واحدة، وآدابها ومصيرها واحد، وعدوها واحد.

وقد أمر الله تعالى الأمة بالاتحاد والائتلاف، ونهاها عن التفرق والاختلاف، فقال تعالى: ﴿واعصموا لربكم ديناً جميعاً ولا تفرقوا﴾^٢ ونبههم على ما يوحد كلمتهم ويجمع صفوفهم، وهو الاشتغال بالدعوة والأمر والنهي: ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾^٣ وحذرهم من الوقوع فيما

٢- آل عمران / ١٠٣.

١- الأنفال / ٧٣.

٣- آل عمران / ١٠٤.

أهلك الأمم من قبلهم، فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾^١ كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين
أخويكم﴾^٢، ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربيكم فأعبدون﴾^٣، ﴿وإن هذه أمتكم أمة
واحدة وأنا ربيكم فاتقون﴾^٤.

كما أمر الرسول الكريم ﷺ الأمة بالاتحاد والترابط والتراحم والتعااضد فيما
بين بعضهم وبعض، كما في الحديث المتفق عليه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد
بعضه بعضاً» وشبك أصابعه^٥. وقال: «تري المؤمنين في توادهم وتعاطفهم
وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء
بالحمى والسهر»^٦. وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^٧. «لا تباغضوا
ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم الله، ولا يحل لمسلم أن
يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»^٨، ويقول: «المسلمون تنكأفاً دماؤهم، يسعى بذمتهم
أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»^٩. «لا تختلفوا فإن من كان
قبلكم اختلفوا فهلکوا»^{١٠}. «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^{١١}.
وفناك الأحاديث التي حثت على الارتباط بالجماعة، وأن يد الله مع الجماعة،
ومن شدشد في النار، وأن الذئب إنما يأكل الغنم الشاردة.

١- آل عمران / ١٠٥. ٢- الحجرات / ١٠.

٣- الانبياء / ٩٢. ٤- المؤمنون / ٥٢.

٥- متفق عليه عن أبي موسى، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠).

٦- متفق عليه عن النعمان بن بشير، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧١).

٧- متفق عليه عن ابن عمر كما في صحيح الجامع الصغير (١٧٠٧).

٨- متفق عليه عن أنس كما في صحيح الجامع الصغير (٢٢٠٠).

٩- رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (٦٧١٢).

١٠- رواه البخاري عن ابن مسعود، صحيح الجامع الصغير (٧٢٥٥).

١١- متفق عليه عن جرير وعن ابن عمر: اللؤلؤ والمرجان (٤٤ - ٤٥).

وكل هذه النصوص تؤكد أن وحدة الأمة فريضة لازمة، كما أنها ضرورة حاسمة، فهي فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، وخصوصاً في عصرنا هذا.

حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

قد يشوش على الوحدة المفروضة والمنشودة، حديث اشتهر في الكتب: كتب السنة، وكتب العقائد، وكتب الفرق، وتناقله الناس بعضهم عن بعض حتى اعتقدوا - لشيوعه وشهرته - أنه حديث ثابت لا مطعن فيه، مع أن الشهرة لا تلازم الثبوت والصحة. ذلكم هو حديث افتراق الأمة إلى فرق فوق السبعين، كلها في النار إلا واحدة، وهو حديث يوحى ظاهره بأن الفرقة أبدية في الأمة، وأنها قدر مكتوب عليها، لا فكاك منه. وينبغي أن نبث بموضوعية وحياد في هذا الحديث، من ناحية ثبوته، ومن ناحية دلالاته إن ثبت.

قيمة الحديث من ناحية سنده:

أ) فأول ما ينبغي أن يعلم هنا أن الحديث لم يرد في أي من الصحيحين، برغم أهمية موضوعه، دلالة على أنه لم يصح على شرط واحد منهما. وما يقال من أنها لم يستوعبا الصحيح، فهذا مسلم، ولكنهما حرصا على ألا يدعا باباً مهما من أبواب العلم إلا ورويا فيه شيئاً ولو حديثاً واحداً.

ب) إن بعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة، وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط. وهذا هو حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وفيه يقول: «افتترقت اليهود على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^١.

١- أبو داود في السنة برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٣٦٤٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن مختصراً (٣٩٩١) وابن حبان، كما في الإحسان (٦٧٣١/٦٢٤٧) والحاكم (٦/١) وصححه على شرط مسلم ورده الذهبي.

والحديث - وإن قال فيه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم - مداره على محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، ومن قرأ ترجمته في «تهذيب الكمال» وفروعه^١ علم أن الرجل متكلم فيه من قبل حفظه، وأن أحدا لم يوثقه

١- يحسن بنا أن نذكر هنا نبذة عنه مما نقله الحافظ المزي في تهذيب الكمال عن أئمة الجرح والتعديل: سأل عنه علي بن المديني: يحيى بن سعيد بن القطان: محمد بن عمرو كيف هو: قال: تريد العفو أم تشدد؟ قال: لا بل أشدد. قال: ليس هو ممن تريد. كان يقول: حدثنا أشياخنا أبو سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. قال يحيى: وسألت مالكا عن محمد بن عمرو فقال: فيه نحو مما قلت لك.

وقال إسحاق بن حكيم: قال يحيى القطان: وأما محمد بن عمرو فرجل صالح، ليس بأحفظ الناس للحديث.

وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين: أنه سئل عن محمد بن عمرو، ومحمد بن إسحاق أيهما يقدم؟ فقال: محمد بن عمرو.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: سئل يحيى بن معين عن محمد بن عمرو، فقال: مازال الناس يتقون حديثه، قيل له: وما علة ذلك؟ قال: كان يحدث مرة عن أبي سلمة بالشيء من رأيه ثم يحدث به مرة أخرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

وقال إبراهيم بن يعقوب السعدي الجوزجاني: ليس يقوي الحديث، ويستهي حديثه.

وقال أبو حاتم: صالح الحديث، يكتب حديثه، وهو شيخ.

وقال النسائي: ليس به بأس. وقال في موضع آخر: ثقة.

وقال أبو أحمد بن عدي: له حديث صالح، وقد حدث عنه جماعة من الثقات كل واحد منهم يتفرد عنه بنسخة، ويفرب بعضهم على بعض، ويروي عنه مالك غير حديث في «الموطأ»، وأرجو أنه لا بأس به.

ونكره ابن حبان في كتاب «الثقات»، وقال: كان يخطئ: أ.هـ. انظر: تهذيب الكمال ٢٦/٢١٥ -

٢١٧. فمثل هذا الراوي - بعدما قرأنا ما قيل فيه - لا يؤخذ عنه حديث خطير يكون هو العمدة فيه، والمعمول عليه، مثل حديثنا هذا.

بإطلاق، وكل ما ذكره أنهم رجوه على من هو أضعف منه. ولهذا لم يزد الحافظ في التقریب علو، أن قال: «صديق له أوهام. والصديق وحده في هذا المقام لا يكفي ما لم ينضم إليه الضبط، فكيف إذا كان معه أوهام؟».

ومعلوم أن الترمذي وابن حبان والحاكم من المتساهلين في التصحيح، وقد وصف الحاكم بأنه واسع الخطو في شرط التصحيح.

وهو هنا صحح الحديث على شرط مسلم، باعتبار أن محمد بن عمرو احتج به مسلم، ورده الذهبي بأنه لم يحتج به منفرداً، بل بانضمامه إلى غيره^١.

على أن هذا الحديث من رواية أبي هريرة ليس فيه زيادة: أن الفرق «كلها في النار إلا واحدة» وهي التي تدور حولها المعركة.

وقد روي الحديث بهذه الزيادة من طرق عدد من الصحابة: عبد الله بن عمر، ومعاوية، وعوف بن مالك، وأنس، وكلها ضعيفة الإسناد، وإنما قووها بانضمام بعضها إلى بعض.

والذي أراه أن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه، وخصوصاً المتقدمين، كما يبدو ذلك في كتب التخريج، والعلل، وغيرها! وإنما قد يؤخذ بها فيما لا معارض له، ولا إشكال في معناه.

وهنا إشكال أي إشكال: في الحكم بأن التفرق قدر حتمي مكتوب على الأمة لافكاك لها منه، وكذلك الحكم بالفتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من قبل، وبأن هذه الفرق كلها مالهكة في النار إلا واحدة منها! وهو يفتح باباً لأن تدعي كل فرقة أنها الناجية، وأن غيرها هو الهالك، وفي هذا مافيه من تعزيق للأمة وطعن بعضها في بعض، مما يضعفها جميعاً، ويقوي عدوها عليها ويغريه بها.

ولهذا طعن العلامة ابن الوزير في الحديث عامة، وفي هذه الزيادة خاصة لما

١- المستدرک ٦/١ وفي موضع آخر ١٢٨/١ أخره الذهبي، وهذا يتكرر كثيراً في تلخيصه، فلعله غفل عما نكره من قبل، أو اكتفى به. ومن المعلوم أن البخاري أيضاً روى لمحمد بن عمرو ولكن مقروناً بغيره معلقاً، كما في مقدمة الفتح فكان يمكن للحاكم على طريقته أن يقول: على شرطهما.

تؤدي إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض، بل تكفيرها بعضها لبعض.

قال ﷺ في العواصم وهو يتحدث عن فضل هذه الأمة، والحذر من التورط في تكفير أحد منها، قال: «وياك والاعتقار بـ «كلها هالكة إلا واحدة» فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة».

قال: «وعن ابن حزم: أنها موضوعة، غير موقوفة ولا مرفوعة. وكذلك جميع ما ورد في ذم القدرية والمرجئة والأشعرية، فإنها أحاديث ضعيفة غير قوية»^١.

ج) إن من العلماء قديماً وحديثاً من رد الحديث من ناحية سنده، ومنهم من رده من ناحية متنه ومعناه^٢.

فهذا أبو محمد بن حزم، يرد على من يكفر الآخرين بسبب الخلاف في

١- العواصم والقواصم ١٨٦/١.

٢- وفي متن هذا الحديث إشكال من حيث إنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس، ووصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس، أسوأ من اليهود والنصارى في مجال التفرق والاختلاف، حتى إنها زادت في فرقها على كل من اليهود والنصارى. هذا مع أن القرآن قال في شأن اليهود: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة / ٦٤). وقال في شأن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة / ١٤). ولم يجئ في القرآن عن أمة الإسلام شيء يشبه هذا، بل فيه التحذير أن يتفرقوا ويختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم.

والحديث يعتبر الفرقة قدراً لازماً للأمة، لانفكاك لها منه، وأنه الأصل، ولا مطمع لها إذن في أن تتوحد كلمتها. وهذا من أكبر الأخطار عليها: يأس الناس من التوحد والتجمع.

ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها - إلا واحدة - بأنها في النار، هذا مع ما جاء في فضل هذه الأمة، وأنها أمة مرحومة، وأنها تشمل أهل الجنة، أو نصف أهل الجنة.

غير أن الخبر عن اليهود والنصارى بأنهم افترقوا إلى هذه الفرق التي نيفت على السبعين غير معروفة في تاريخ الملتين، وخصوصاً عند اليهود. فلا يعرف أن فرقهم بلغت هذا المبلغ من العدد.

الاعتقادات بأشياء يوردونها.

وذكر من هذه الأشياء التي يحتجون بها في التكفير حديثين يعزونها إلى رسول الله ﷺ ، هما:

١- «القدريّة والمرجئة مجوس هذه الأمة».

٢- «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، كلها في النار حاشا واحدة، فهي في الجنة».

قال أبو محمد: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به؟^١

وهذا الإمام اليميني المجتهد ، ناصر السنة، الذي جمع بين المعقول والمنقول، محمد إبراهيم (ت ٨٤٠هـ) يقول في كتابه «العواصم والقواصم» أثناء سرده للأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه، فكان منها (الحديث الثامن): حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا فرقة واحدة، قال: وفي سنده ناصبي^٢، فلم يصح عنه، روى الترمذي مثله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: حديث غريب. ذكره في الإيمان من طريق الإفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عنه.

وروى ابن ماجة مثله، عن عوف بن مالك، وأنس.

قال: وليس فيها شيء على شرط الصحيح، ولذلك لم يخرج الشيخان شيئاً منها. وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، وليس

١- الفصل في الملل والنحل لابن حزم، تحقيق د. إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عمير، ٢٩٢/٣ ط. دار عكاظ، جدة. وقد ذكر الشيخ الألباني في الصحيحة رقم ٢٠٤ أنه بحث عن كلام ابن حزم هذا في الفصل فلم يعثر عليه، وهو ذا واضح صريح.

٢- يشير إلى أضر بن عبد الله - أو ابن سعيد - الحرازي، الذي عرف بأنه كان يسب علياً رضي الله عنه وينال منه. انظر ترجمته في تهذيب الكمال رقم ٣١٠، ومثل هذا جدير أن يضعفه، ولا يقبل منه حديث بهذه الخطورة.

فيه «كلها في النار إلا فرقة واحدة». وعن ابن حزم: أن هذه الزيادة موضوعة، ذكر ذلك صاحب البر المتيقن^١.

وقد قال الحافظ بن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أوليسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾^٢، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستنفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»^٣. ولم يزد على ذلك، فلم يصفه بصحة ولا حسن، رغم أنه أطال في تفسير الآية بذكر الأحاديث والآثار المناسبة لها.

ونذكر الإمام الشوكاني قول ابن كثير في الحديث، ثم قال: قلت: أما زيادة «كلها في النار إلا واحدة» فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة^٤.

الحديث من حيث دلالتة (على فرض ثبوته)

على أن الحديث - وإن حسنه بعض العلماء كالحافظ ابن حجر، أو صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية بتعدد طرقه - لا يدل على أن هذا الافتراق بهذه الصورة وهذا العدد، أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة، ويكفي لصدق الحديث أن يوجد هذا في وقت من الأوقات.

قد توجد بعض هذه الفرق، ثم يغلب الحق باطلها، فتنتقض ولا تعود أبداً. وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة، فقد هلك بعضها، ولم يعد له وجود.

١- العواصم والقواصم لابن الوزير بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، ج ١٧٠/٣ - ١٧٢ والمذكور هنا يرد على الشيخ الألباني الذي ذكره في «المصححة» المجلد الأول، ١٩/٣ - ٢٠ أن ابن الوزير رد الحديث من جهة متنه لامن جهة سندته، ولا أدري من أين له هذا؟

٢- الأنعام / ٦٥.

٣- تفسير ابن كثير، ٧/٢، طبعة عيسى الحلبي.

٤- فتح القدير للشوكاني في تفسير الآيات ٦٥ - ٦٧ من سورة المائدة، ٥٩/٢، ط. دار الفكر.

ثم إن الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها جزء من أمتي ﷺ أعني أمة الإجابة المنسوبة إليه، بدليل قوله: «تفترق أمتي» ومعنى هذا أنها - برغم بدعتها - لم تخرج عن الملة، ولم تفصل من جسم الأمة المسلمة، وهذا ما ذكره الإمام الخطابي في «معالم السنن»، قال: فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ قد جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمتي. وفيه: أن المتأول لا يخرج من الملة، وإن أخطأ في تأوله ١. هـ.

وكونها «في النار» لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار، بل يدخلونها كما يدخلها عصاة الموحدين.

وقد يشفع لهم شفيع مطاع من الأنبياء أو الملائكة أو آحاد المؤمنين، وقد يكون لهم من الحسنات الماحية أو المحن والمصائب المكفرة، ما يدرأ عنهم العذاب. وقد يغفر الله عنهم بفضلهم وكرمهم، ولا سيما إذا كانوا قد بذلوا وسعهم في معرفة الحق، ولكنهم لم يوفقوا وأخطأوا الطريق، وقد وضع الله عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

٢- شغل المسلم بهوم أمته الكبرى

من أكثر ما يوقع الناس في حفرة الاختلاف، وينأى بهم عن الاجتماع والاتلاف: فراغ نفوسهم من الهموم الكبيرة، والآمال العظيمة، والأحلام الواسعة. وإذا فرغت الأنفس من الهموم الكبيرة، اعتزكت على المسائل الصغيرة، واقتلت - أحياناً - فيما بينها على غير شيء.

ولا يجمع الناس شيء كما تجمعهم الهموم والمصائب المشتركة، والوقوف في وجه عدو مشترك، وما أصدق ما قاله أحمد شوقي: إن المصائب يجمع المصائبينا». وإن من الخيانة لأمتنا اليوم أن نفرقها في بحر من الجدل حول مسائل في فروع الفقه أو على هامش العقيدة، اختلف فيها السابقون، وتنازع فيها اللاحقون، ولا أمل

في أن يتفق عليها المعاصرون. في حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ومصائبها التي ربما كنا سبباً أو جزءاً من السبب في وقوعها.
وهذا ما حدا بابن عمر، رضي الله عنهما، حينما سأله من سأله من أهل العراق عن دم البعوض في حالة الإحرام، فأنكر على السائل هذا التنطع والتعمق في السؤال عن هذه الدقائق، على حين أن قومه خذلوا الحسين عليه السلام، حتى سفك دمه، ولقي ربه شهيداً مرضياً.

وهكذا قال ابن عمر: هؤلاء يسألون عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! وقد قال رسول الله ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»^١. قال الحافظ في الفتح: أورد ابن عمر هذا متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير والتفريط في الشيء الجليل^٢.

من الخيانة أن يحمي الوطيس، وتنصب المجانيق، ويتقاذف الناس بكلمات أشد من الحجارة، وأنكى من السهام، من أجل مسائل تحتل أكثر من وجه، وتقبل أكثر من تفسير، فهي من مسائل الاجتهاد، التي دلت على سعة هذا الدين ومرونته، المصيب فيها مأجور والمخطئ فيها معذور، وخطؤه فيها مغفور، بل هو - بنص الحديث - مأجور.

لهذا كان من الواجب على الدعاة والمفكرين الإسلاميين أن يشغلوا جماهير المسلمين بهوم أمتهم الكبرى، ويلفتوا أنظارهم وعقولهم وقلوبهم إلى ضرورة التركيز عليها والتنبيه لها، والسعي الجاد ليحمل كل فرد جزءاً منها، وبذلك يتوزع العبء الثقيل على العدد الكبير، فيسهل القيام به.

إن العالم يتقارب بعضها من بعض على كل صعيد، رغم الاختلاف الديني، والاختلاف الإيديولوجي، والاختلاف القومي، واللغوي، والوطني والسياسي. لقد رأينا المذاهب المسيحية - وهي أشبه بأديان متباينة - يقترب بعضها من

١- الحديث رواه أحمد في مسنده في عدة مواضع (٥٨٦٥ - ٥٦٧٥) ورواه البخاري في المناقب،

٢- فتح الباري (٧٩١٧).

الحديث (٣٧٥٣).

بعض، ويتعاون بعضها مع بعض.

بل رأينا اليهودية والنصرانية - على ماكان بينهما من عدااء تاريخي - يتقاربان، ويتعاونان في مجالات شتى، حتى أصدر الفاتيكان منذ سنوات وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح.

ورأينا على المستوى الإيديولوجي تقارب العملاقين: أمريكا والاتحاد السوفيتي - عندما كان قائماً - فيما سمي «سياسة الوفاق». وكذلك رأينا تقارب أمريكا مع الصين.

أما أوروبا التي مزقتها الحروب والصراعات والنزاعات القومية والإقليمية والسياسية والإيديولوجية، فهي اليوم تتقارب، ثم تتقارب حتى توشك أن تكون دولة واحدة تذوب بين أقطارها الفواصل والحدود.

رأينا هذا كله بأعيننا، ورأينا في مقابله المسلمين يتباعدون، ويتنكر بعضهم لبعض، بل يقاتل بعضهم بعضاً.

إن أبناء المسلمين في أقطار شتى يموتون - مادياً - من الجوع والمرض، ويموتون - معنوياً - بالجهل والامية، وانتشار الخرافات، ويتعرضون لأخطار التنصير والتكفير والتضليل، فكيف لانهتم لأمرهم، ونسعى لإنقاذهم؛ ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.

إن الأمة المسلمة لا تزرع ما تأكل من القوات الضروري، ولا تصنع ما تستخدمه من السلاح اللازم للدفاع عن الحرمان، ولا من الآلات ما يجعل لها وزناً واعتباراً. فهي كلها ضمن العالم الثالث، ولو كان هناك عالم رابع لنسبت إليه! وكثيراً ما اتهم الإسلام ظلاماً بأنه سبب تخلفها، مع أنها يوم تمسكت به كانت سيدة الأمم وأستاذة البشرية.

ولقد كتبت دراسة صدرت في كتاب عن «الصحوۃ الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» وبينت فيه أن الصحوۃ ليست بمعزل عن هموم هذا الوطن الكبير، إنها مشغولة الفكر والقلب بهذه الهموم، معنية بالتعرف على أسبابها والطريق إلى علاجها من صيدلية الإسلام.

وعنيت - بخاصة - تيار «الوسطية الإسلامية» الذي يفهم الإسلام فهماً شمولياً إيجابياً، جامعاً بين السلفية والتجديد، موازناً بين الثوابت والمتغيرات، بين النظرة إلى التراث والتخطيط للمستقبل.

لقد تحدثت هناك بشيء من التفصيل عن هموم سبعة أساسية هي:

۱- هم التخلف العلمي التكنولوجي والحضاري.

۲- هم النظام الاجتماعي والاقتصادي.

۳- هم الاستبداد والتسلط السياسي.

۴- هم التغريب والغزو الفكري والثقافي.

۵- هم العدوان والاحتصاب الصهيوني.

۶- هم التجزئة والتمزق العربي والإسلامي.

۷- هم التسيب والانحلال الخلقي.

وهي - بلا ريب - هموم كبيرة وثقيلة، وتحتاج لمعالجتها إلى تكاتف العقول لتفكر، والعزائم لتصمم، والأيدي لتنفذ، وتستغرق من الجهود والأوقات والأموال الكثير والكثير.

ولو شئنا لأضقنا إليها هموماً وهموماً، مثل الحروب الأهلية والصراعات الإقليمية والمجاعات المهلكة، والهجمات التنصيرية الشرسة، وغيرها...

أفيسع مسلماً غيوراً على دينه، مهتماً لأمر أمته - عنده مسكة من العقل - أن يعرض وينأى بجانبه عن هذه الهموم الضخمة، ثم تراه يقوم ويقعد، ويبرق ويرعد، من أجل جزئيات علمية أو سلوكية، لا تدخل في دائرة الضروريات، ولا الحاجيات، وإنما هي كلها في نطاق التحسينات والكماليات، وفي سبيل هذه الفرعيات لا يبالى أن يمزق الشمل الملتئم، ويوقظ الفتنة النائمة، ويحرك العصبيات الساكنة.

هذا على حين يجد العالم من حولنا يتناسى الخلافات الجذرية بين بعضه وبعض، وهو ما أثمر التقارب العالمي الذي نشهده اليوم على أصعدة شتى.

لهذا يجب أن لا نشغل الناس بالمسائل الفرعية، ونقيم الدنيا ونقعدها من أجل قضايا جزئية أو خلافية، ونلهيهم بذلك عن الأصول الكلية والقضايا المصيرية.

ويدخل في هذا الموضوع: الإعراض عما لا ثمرة له، ولا طائل تحته من البحث في الموضوعات التي شغلت العقل الإسلامي فترة أو فترات من التاريخ، ثم لم يعد لها اليوم مكان.

وذلك مثل موضوع «خلق القرآن الذي احتل مساحة واسعة من التفكير الإسلامي في بعض العصور، وحميت المعركة فيه بين المعتزلة وغيرهم، واستطاع مفكرو المعتزلة أن يورطوا الدولة العباسية وخلفاءها في هذا الصراع، وأن يدخلوا معركة مع جمهور المسلمين وعلمائهم، وأئمتهم - وعلى رأسهم الإمام الرياني الصابر المحتسب أحمد بن حنبل - وأن يستخدموا الحديد والنار والسجن والتعذيب لإجبار المخالفين على ترك ما يعتقدون، وموافقتهم فيما إليه يدعون. لقد كانت فتنة مظلمة، ومحنة قاسية، يحمل وزرها الذين وسّموا بأنهم دعاة الحرية الفكرية.

على كل حال لهذه الفتنة ظروفها ومبرراتها في وقتها، ولكن لا يوجد أي مبرر لإحيائها اليوم بوجه من الوجوه.

لهذا عجت ممن يتحدث عن الإمامية أو الزيدية أو الإباضية أو غيرهم من الطوائف بأنهم يقولون بخلق القرآن، فما ينبغي لهذه المشكلة أن تثار عند أي من الفريقين...

إن مشكلتنا اليوم ليست مع من يقول بأن القرآن كلام الله مخلوق، بل مع الذين يقولون: القرآن ليس من عند الله، بل هو من عند محمد، أي الذين يقولون ببشرية القرآن.

ثم مشكلتنا كذلك مع الذين يؤمنون بالهية القرآن، ويرتضون بمرجعيتهم في العقيدة والعبادة، ولكنهم لا يرتضونه منهاجاً للحياة، ودستوراً للدولة والمجتمع، وهم جماعة «العلمانيين» الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض!

٣- التعاون في المتفق عليه

بعض الفصائل التي تنتسب إلى الصحوة الإسلامية أو العمل الإسلامي، مهمة

اکبر الاهتمام بالمسائل الخلافية، فهو شغلها بالنهار، وحملها بالليل.
حولها يتركز البحث، ولها تقام الدروس، وفيها يدور الجدل، ومن أجلها تحمى
معارك الكلام والخصام.

وأنا لا أنكره أن يبحث الناس في المسائل الخلافية، بحثاً علمياً مقارناً يرجح
أحد الرأيين أو الآراء، إذا قام بذلك أهل الاختصاص، من العلماء القادرين
المؤهلين لمثل هذا العمل العلمي الرصين، الجامع بين الفقه والورع والاعتدال.
ولكن الذي أنكره: أن يصبح البحث في المسائل الخلافية أكبر همنا، ومبلغ
علمنا، وأن تضخمها حتى تأكل أوقاتنا وجهودنا وطاقتنا، التي يجب أن
نوجهها لبناء ما تدعى أو تهدم من بنياننا الديني والثقافي والحضاري.

وأن يكون هذا الاهتمام والاستغفال على حساب القضايا التي لاخلاف عليها.
إنني أود لو أن رجال المسلمين جميعاً حرصوا على إطلاق لاهم، فأحيوا هذه
السنة من سنن الفطرة، وخرجوا من خلاف من أوجبها من الأئمة، وتميزوا عن
غيرهم من الأمم، وفوتوا الفرصة على رجال المباحث الذين يعتبرون للحية دليل
اتهام.

ومع هذا لا أود أن تشغل الناس بهذا، وأن نفسق من لايغفها، فهذا أمر عمت به
البلوى، ولهذا أسفت حقاً حين ذكر لي بعض الثقة من الشباب أن أحد المولعين
بالخلافيات ألقى تسع محاضرات في وجوب إعفاء اللحية، وتحريم أخذ شيء منها.
كما أسفت لأن أحدهم ألقى رسالة سماها «نهي الصلبة عن النزول على الركبة»
وهو أمر يتعلق بهيئة الصلاة، وفيه أخذ ورد، وأن آخر كتب رسالة أيضاً بعنوان:
«الواحة في جلسة الاستراحة» إلى غير ذلك من الرسائل، والمقالات والمحاضرات
التي تدور حول هذه الأمور، التي اختلف فيها الأئمة، بين مثبت وناف، وسيظل
الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله.

(جاری ہے)

قارئین کو عید الفطر مبارک ہو

مجلس ادارت

☆.....نہیں کہ چون گریہ عاجز شود ☆☆☆☆ برا روبرو چنگل چشم بپاگ ☆